سورة محمد

قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد: ٤]

القراءات: «قتلوا» قرأ أبو عمرو وحفص ويعقوب بضم القاف وحذف الألف وكسر التاء وقرأ الباقون «قاتلوا» بفتح القاف وألف بعدها وفتح التاء.

التوجيه: قال الرازي: وأما من قرأ «قاتلوا» فهو أكثر فائدة وأعم تناولًا لأنه يدخل فيه من سعى في القتل سواء قتل أو لم يقتل. وأما من قرأ «والذين قُتلوا» على البناء للمفعول فنقول هي مناسبة لما تقدم من وجوه. **أحدها:** هو أنّه تعالى لمّا قال «فضرْب الرقابِ» أي اقتلوا والقتل لا يتأتى إلا بالإقدام وخوف أن يقتل المتقدم يمنعه من الإقدام فقال لا تخافوا القتل فإن من يقتل في سبيل الله له من الأجر والثواب ما لا يمنع المقاتل من القتال بل يحثه عليه.

وثانيها- هو أنّه تعالى لمّا قال ﴿ لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ والمبتلى بالقتل به وجه من وجوه الأثر الظاهر بالابتلاء وهذا كمال فإن السيف الممتحن تزيد قيمته على تقدير أن يقطع وتنقص على تقدير أن لا يقطع، فحال المبتلين ماذا؟ فقال إن قُتِلَ فله أن لا يضل عمله ويُهدى ويُكرم ويُدخل الجنة وأما إن قَتَلَ فلا يخفى حسن حاله عاجلًا وآجلًا وترك بيانه على تقدير كونه قاتلًا لظهوره وبين حاله على تقدير كونه مقتولًا **وثالثها-** هو أنه تعالى لما قال ﴿ لِّيَبْلُوَكُمْ ﴾ [المائدة: ٤٨] ولا يُبتلى الشيء النفيس بما يخاف منه هلاكه فإن السيف المهند الكبير القيمة لا يجرب بالشيء الصلب الذي يخاف عليه من الانكسار ولكن الآدمي مكرم كرمه الله وشرفه وعظمه فلماذا ابتلاه بالقتال وهو يفضي إلى القتل والهلاك إفضاء غير نادر فكيف يحسن هذا الابتلاء؟ فنقول القتل ليس بإهلاك بالنسبة إلى المؤمن فإنه يورث الحياة الأبدية فإذا ابتلاه بالقتال فهو على تقدير أن يُقتل مكرم وعلى

تقدير أن لا يُقتل مكرم هذا إن قَاتَل وإن لم يقاتل فالموت لابد منه وقد فوت على نفسه الأجر الكبير.

وقال ابن جرير: وأولى القراءات بالصواب قراءة من قرأه «والذين قاتلوا» لاتفاق الحجة من القرّاء عليها، وإن كان لجميعها وجوه مفهومة.

قلتُ: هما قراءتان متواترتان متفقٌ على صحتهما، ولكل قراءة وجهها ودلالتها، **قال ابن عاشور:** وقرأ الجمهور «قاتلوا» بصيغة المفاعلة، فهو وعد للمجاهدين أحيائهم وأمواتهم. وقرأه أبو عمرو وحفص عن عاصم «قتلوا» بالبناء للنائب، فعلى هذه القراءة يكون مضمون الآية جزاء الشهداء فهدايتهم وإصلاح بالهم كائنان في الآخرة.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ ﴾ [محمد: ١٥]

القراءات: «آسن» قرأ ابن كثير بغير مدٍّ بعد الهمزة وقرأ الباقون بالمد.

المعنى: قال الرازي: يقال: أسن الماء يأسن على وزن أمن يأمن فهو آسن، وأسن اللبن إذا بقي زمانًا فتغير طعمه.

التوجيه: قال ابن عاشور: قرئ آسن على أنه وصف من أسن الماء من باب ضرب ونصر وفرح، إذا تغير لون الماء، وقرئ «أَسِن» بدون ألف بعد الهمزة على وزن فَعِل للمبالغة **وقال القرطبي:** قرئ «آسن» بالمد، و«أسن» بالقصر، وهما لغتان مثل حاذر وحذر، وقال الأخفش: أسن للحال، وآسن «مثل فاعل» يراد به الاستقبال.

قلتُ: أي لا هو متغير الآن ولا هو متغيرٌ في المستقبل بل يبقى على صفائه وعذوبته أبدًا.

قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [محمد: ١٦]

القراءات: «آنفًا» قرأ البزي بخلف عنه بقصر الهمزة والباقون بمدها وهو الوجه الثاني للبزي.

التوجيه: قال ابن عاشور: واتفق القراء على قراءته بصيغة فاعل وشذت رواية عن البزي عن ابن كثير أنه قرأ «أَنِفًا» بوزن كَتِفَ. وقد أنكر بعض علماء القراءات نسبتها إلى ابن كثير ولكن الشاطبي أثبتها في حرز الأماني وقد ذكرها أبو علي في الحجة.

فإذا صحت هذه الرواية عن البزي عنه كان «أَنِفًا» حالًا من ضمير «من يستمع» أُجريَ على الإفراد مراعاةً للفظ «من». ومعناه: أنه يقول ذلك في حال أنه شديد الأنفة، أي التكبر؛ إظهارًا لترفعه عن وعي ما يقوله النبي ﷺ وينتهي الكلام عند ماذا. وزعم أبو علي في الحجة: أن البزي توهمه مثل: حاذر وحذر، ولا يظن مثل هذا بالبزي لو صحت الرواية عنه عن ابن كثير.

قلتُ: ليست الرواية عن البزي بشاذة بل هي متواترة.

قال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٢٢]

القراءات: «عَسِيتم»: قرأ نافع بكسر السين والباقون بفتحها.

«تقطعوا»: قرأ يعقوب بفتح التاء وسكون القاف وفتح الطاء مخففة، قرأ الباقون بضم التاء وفتح القاف وكسر الطاء مشددة.

التوجيه: قال ابن عاشور: وقرأ نافع وحده «عسيتم» بكسر السين. وقرأه بقية العشرة بفتح السين وهما لغتان في فعل عسى إذا اتصل به ضمير. قال أبو علي الفارسي:

وجه الكسر أن فعل عَسِي مثل رَضِي. ولم ينطقوا به بالكسر إلا إذا أسند هذا الفعل إلى ضمير، وإسناده إلى الضمير لغة أهل الحجاز، أما بنو تميم فلا يسندونه إلى الضمير ألبتة، يقولون: عسى أن تفعلوا.

وقال ابن جرير: والصواب عندنا قراءة ذلك بفتح السين لإجماع الحجة من القراء عليها وأنه لم يسمع في الكلام: عَسِيَ أخوك يقوم بكسر السين وفتح الياء ولو كان صوابًا كسرها إذا اتصل بها مكني [كالضمير] لجاءت بالكسرة مع غير المكنّي وفي إجماعهم على فتحها مع الاسم الظاهر الدليل الواضح على أنها كذلك مع المكنيّ، و«إنْ» التي تلي «عسيتم» مكسورة، وهي حرف جزاء، و«أَنْ» التي مع «تفسدوا» في موضع نصب بـ«عسيتم».

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٢٢]

القراءات: قرأ رويس «تُوُلِّيْتُم» وقرأ الباقون «تَوَلَّيْتُم».

المعنى والتوجيه: قال القرطبي: اختلف في معنى «تَوليتم» بفتح التاء، فقيل: هو من الولاية، قال أبو العالية: المعنى: فهل عسيتم إن توليتم الحكم فجعلتم حكامًا أن تفسدوا في الأرض بأخذ الرُّشا (الرشوة)، وقال الكلبي: أي: فهل عسيتم إن توليتم أمر الأمة أن تفسدوا في الأرض بالظلم، وقال ابن جريج: المعنى فهل عسيتم إن توليتم عن الطاعة أن تفسدوا في الأرض بالمعاصي وقطع الأرحام، وقال قتادة: أي فهل عسيتم إن توليتم عن كتاب الله أي تفسدوا في الأرض بسفك الدماء وتقطعوا الأرحام، وقرئ بضم التاء «تُوليتم»، والمعنى: إن وليتكم ولاةً جائرةً خرجتم معهم في الفتنة وحاربتموهم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٥]

القراءات: «أملي»: قرأ أبو عمرو بضم الهمزة وكسر اللام وفتح الياء وقرأ يعقوب كذلك إلا أنه سكن الياء، وقرأ الباقون بفتح الهمزة واللام وألف بعدها.

التوجيه: قرئ «أُملي» بضم الهمزة وكسر اللام وفتح الياء على البناء للمفعول، لتفيد تعدد من فعل ذلك، فالله أملى لهم، والشيطان أملى لهم، وأنفسهم الأمّارة بالسوء قد أملت لهم، وقرئ «أَملى» بفتح الهمزة لبيان أنّ الشيطان سوّل لهم وأَملى لهم، ولا تعارض بين القراءتين، فما أَملى الشيطان لهم إلّا بمشيئة الله وإرادته الكونية، وما ضلّوا إلّا باتباع أنفسهم الأمارة بالسوء لإملاء الشيطان، فهي التي استجابت لتسويل الشيطان وإملاءه.

وقال ابن جرير: وأولى القراءات بالصواب في هذه الآية، القراءة التي عليها عامة قرّاء الحجاز والكوفة من فتح الألف في ذلك، لأنها القراءة المستفيضة في قرأة الأمصار، وإن كان يجمعها مذهب تتقارب معانيها فيه.

قلتُ: بل هاتان القراءتان متواترتان متكاملتان تبينان معًا حقيقة الإغواء، وهي أنّ الرب يكل العبد إلى نفسه ويخلق في قلبه الغواية ولا يعصمه فيتسلط عليه الشيطان بالإملاء والإغواء، فلا يزال يلح على نفسه بذلك حتى تستجيب لإغوائه وإملائه، وما ربك بظلامٍ للعبيد.

فائدة: القراءة الثالثة: قراءة يعقوب «أُمليْ» على إسناد الفعل إلى ضمير المتكلم – والمعنى: وأملي أنا لهم – تدل على أنّ المراد من قوله «وأملى» على قراءة الجمهور: أنّ الله أملى لهم وكذا على قراءة «أُمليَ» بفتح الياء، أو يقال: لمّا كان الله هو الذي خلق في قلوبهم الغواية وكان الشيطان لا يتسلط عليهم إلّا بمشيئة الله صحّ أن ينسب ذلك إلى الله وحده مع أنَّ الشيطان أملى لهم كذلك.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٦].

القراءات: «إسرارهم» قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف العاشر بكسر الهمزة وقرأ الباقون بفتح الهمزة.

التوجيه: قال الشنقيطي: قرئ «أسرارهم» بفتح الهمزة جمع سر، وقرئ بكسر الهمزة «إسرارهم» مصدر أسرّ، كقوله: ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٩]، وقد قالوا لهم ذلك سرًا فأفشاه الله العالم بكل ما يسرون وما يعلنون.

تنبيه: قرأ شعبة قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨]؛ قرأ «رضوانه» بضم الراء وقرأ الباقون بكسرها، وقد قدمنا أنّهما لغتان في هذه الكلمة، وتزيد هاهنا أنّ قراءة الكسر مع قراءة الضم يدلان على أنهم كرهوا أيّ رضوان: من الله سواءٌ قلّ كما تدل عليه قراءة الكسر لخفة حركة الكسر، أو عَظُم كما تدل عليه قراءة الضم لثقل حركة الضم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: ٣١]

القراءات: «ولنبلونكم، نعلم، نبلوا» قرأ شعبة بالياء في الأفعال الثلاثة وقرأ الباقون بالنون فيهن وقرأ: رويس بإسكان واو «ونبلوا» تخفيفًا والباقون بفتحها.

التوجيه: قال ابن عاشور: وقرأ الجمهور «ولنبلونكم حتى نعلم» «ونبلوا» بالنون في الأفعال الثلاثة، وقرأ أبو بكر عن عاصم تلك الأفعال الثلاثة بياء الغيبة والضمائر عائدة إلى اسم الجلالة في قوله «والله يعلم أعمالكم». **وقرأ الجمهور** «ونبلوا» بفتح الواو عطفًا على «نعلم». وقرأه رويس عن يعقوب بسكون الواو عطفًا على «ولنبلونكم». **وقال**

د/محمد سالم محيسن: قراءة رويس بإسكان الواو في «نبلوا» تخفيفًا، وقراءة الباقون بالفتح على الأصل.

قال ابن جرير: وأولى هذه القراءة عندنا، قراءة عامة قراء الأمصار بالنون «لنبلوكم»، «نعلم»، و«نبلو» على وجه الخبر من الله جلّ جلاله عن نفسه، لإجماع الحجة من القراء عليها، وإن كان للأخرى وجهٌ صحيح.

قلتُ: هي قراءات متواترة ولا يصح ردّ إحداها، وقراءة الياء تفيد تعيين الفاعل وتفيد كذلك إثبات ضرورة وقوع ذلك ولو بأقل درجة، وقراءة النون (نون العظمة) تفيد عظيم علم الله وقدرته. كما تفيد أنه ربما وقع ونزل بالمؤمنين بلاء عظيم زيادةً في ابتلائهم ورفعةً لدرجاتهم، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٥]

القراءات: «السلم» قرأ شعبة وحمزة وخلف العاشر بكسر السين وقرأ الباقون بفتحها.

التوجيه: قال ابن عاشور: قرئ بكسر السين وبفتحها وهما لغتان.

قلتُ: والمراد بالسلم هنا المسالمة والمصالحة.

❁❁❁